٤ - حُلم « أبى الغصن »

ثُمَّ الْتفتَ إلىَّ وَسَألنى ساخراً : « فماذا رأيْتَ أنتَ يا « جُحا » ، فى منامِك ؟ » فقلتُ لهُ مُتظاهِراً بالدَّهْشَةِ : « أَليْسَ مِنْ عجائِبِ الاتِّفاقِ وَغرائِبِ المُصادفةِ أنْ أرى - فى هٰذهِ الليلةِ الماضِيَةِ - هٰذا المنامَ العجيبَ بعَينه ، كما رَأَيْتَهُ أنتَ ؟ ولٰكِنَّكَ انتبهتَ مِنَ النَّوم قبلَ أنْ تَنْتهىَ القِصَّة ، فَلَمْ تشْهَدْ بَقِيَّتَها » . فَسَألنىَ « الضَّحَّاكُ » مُتعَجِّباً : « وَهلْ للقِصةِ بَقيَّةٌ ؟ » فقلتُ لهُ : « إنَّ البَقيَّةَ هِيَ أعْجَبُ ما فيها » . فقالَ « الضَّحَّاكُ » : « فاقصُصْ علينا خاتِمَةَ رُؤْياك » . فقلتُ لهُ : « بَعْدَ أنْ خرجْتَ أنتَ من بِرْميل العسَل ، وَخرجْتُ أنا من بِرْميل القَطرانِ ، تملَّكتْنا الحَيْرةُ فَلمْ نسْتَطِع العَوْدةَ قبلَ أنْ نُنظِّفَ ثيابَنا مِنَ العَسَلِ والقَطِرانِ ، حَتَّى لا نصْبِح مَجالًا لِسُخْرِيَةِ مَنْ يَرانا . فاجْتَمعَ رَأيانا على أنْ يَلعَقَ كلٌّ واحِدٍ مِنَّا ما عَلِقَ بثِيابِ أخيهِ ، منَ البرميل الَّذِى اختبأ فيهِ . وَما زلتُ أنا ألعَقُ العَسَلَ وَتلعَقُ أنتَ القَطِران ، حَتَّى طَلعَ الفَجرُ . فانتبَهْتُ ، وَأنا شَديدُ العَجبِ مِمَّا رَأيت في المنام » . وَهُنا استَوْلَى الضَّحِكُ على الحاضِرينَ ، وأُفحِمَ « الضَّحَّاكُ » فَلمْ يَفْتح اللهُ عليه بكلمةٍ واحدةٍ .

الفصل الثانى

جاذب الكرسى

١ ـ الهارج

فانبرى « جعفر بن الحارث » معقباً على هزيمة « الضحاك »، وهو يقول : « لو عقل المازحون، وتدبروا عواقب ما يصنعون ، لكفوا عن العبث والمزاح . فرب مزحة واحدة جلبت على صاحبها ما لا قبل له بدفعه من المصائب . ولعل أعجب ما سمعته ـ فى هذا الباب ـ قصة سمعتها من « أبى الغصن » ـ منذ أعوام ـ فلم أنسها إلى اليوم . »

فسأله الحاضرون أن يقصها عليهم ، فقال : « نشأ « عكرمة الهارج » فى سوق الشطار ، وكان كل عيبه أنه لم يكن يكف ـ لحظة واحدة ـ عن المزاح والعبث والسخرية بمن عرف ومن لم يعرف . وكان الخليفة يرتاح إلى دعابته ، ويتفرج بها كلما ألم به ضيق .

واستدعى الخليفة وزيره ذات يوم . وكان الوزير ـ على العكس من « الهارج » ـ مثالا للصرامة والجد ، والقسوة والحقد . ولم يكد الوزير يهم بالجلوس ـ بعد أن أذن له الخليفة فى ذلك ـ حتى جذب « الهارج » الكرسى . فوقع الوزير وسقطت عمامته . ثم أسرع بالنهوض وهو يكاد يتمزق من الغيظ . وهم بأن يبطش « بالهارج » ، لولا ما رآه على وجه

الْخليفةِ مِنِ استِحْسانٍ وتشْجيع لِهٰذا الْمازِحِ الثّقِيلِ . وتصَنّعَ الوزِيرُ الْمرحَ ، فراح يُجارى الْخَليفةَ فى ابْتهاجِهِ ، ويَكيلُ الثّناء والإِعْجابَ بِما تفَرّدَ بِهِ « الْهازجُ » من ظَرْفٍ ولَباقةٍ ، وخِفّةٍ ورَشاقةٍ .

٢ – مؤامرة الوزير

وَأسَرّها الوَزيرُ فى نَفْسهِ ، وأَقْسَمَ ليَنْتقِمَنّ بعْدَ قليل – مِنْ هٰذا الْمازِحِ الثقيل . وأعَدّ لذلك خُطّةً ما كِرَةً ، تَشْفى غليل نفْسِه الثّائرةِ . وراح الْوزير يَترَبّصُ بعدُوّهِ حَتّى أمْكنته الفُرصةُ منه ، فقدْ سأله الخَليفةُ أنْ يقترح عليهِ اسْمَ والٍ يَصلُحُ لِبَعْضِ الولاياتِ النّائيةِ التى ماتَ واليها .

فقال لهُ الوزير : « لقَدْ عرَفَ مَوْلاىَ فى خادمهِ « عِكْرِمَة » – منذُ نَشاءتِهِ – ما تميّزَ بهِ من الطّاعَةِ والْوَلاء ، والإخلاص والوَفاء . وَقدْ عاشَ « عِكْرِمةُ » فى ظلّ مولاىَ ثلاثينَ عاماً كامِلةً ، لمْ يَدّخِرْ فى خلالِها جُهداً في مُسامرته والتفْرِيج عَنْهُ وإدخالِ الْبهْجَة على نفْسِهِ . ولقَد عوّدَنا أكثرُ مَنْ تولّوْا شئُونَ هٰذه الولايةِ الْبعيدةِ أنْ يثُورُوا – بيْنَ حِين وآخرَ – ويتمرّدوا على الخِلافةِ كُلّما اسْتَتَبّ لهُمُ الأمْرُ وأنِسوا في أنفسِهِمُ القوة . وهٰذا رجل من صنائِعكَ ، ولَيْس يَشُكّ أحَدٌ فى وفائِهِ وإخلاصِهِ .

فهَلْ يُسْتكْثَرُ مَنْصِبُ الولايةِ علَى مثْلِ هٰذا الْخادِمِ الأمين ؟ »

فابْتهَجَ الخليفة بِهٰذا الاقتِراح . وأمرَ بِتولية « عِكْرِمة » فِى الْحال ، بعد أنْ أفضَى إليه بِكُلّ ما حدّثَهُ به الْوَزِيرُ .

٣ – المستشارُ الماكرُ

وَلمْ يقصرْ « عِكْرِمةُ » في شُكْر الْوزير على ما أسْداهُ إليهِ مِنْ صنيع .

وَاستنصحَه « عِكْرمةُ » قَبل سفرهِ ، فزوّدَهُ بنصائحهِ الْغاليةِ .

وأهْدَى إليه – فيما أهْدَى – أحَدَ أتباعه ليُلازمَهُ فى حلّهِ وتَرْحالهِ ، ويُعاونَهُ فى تَصْريفِ الأُمُور . وقد تخيّرَ لهُ الوَزيرُ هذا الْمُستشارَ ، مِنْ أخبثِ مَنْ أنجبتْهُ سُوقُ الشُّطّارِ . وَرَأَى فيه « عِكْرِمةُ » رفيقاً مِنْ رُفقاءِ صِباهُ ، فانْخَدَعَ به ، وأخْلَدَ إليهْ بِثِقتهِ ، وَاتّخذَهُ ناصِحاً وَمُشيراً ، ولَمْ يُخالِفْ لَهُ نُصْحاً ولا تَدْبيراً .

٤ – رايةُ العصيان

وَلَمْ يَكَدْ يُشْرِفُ الْعامُ عَلى نِهايَتِهِ حتّى زَيَّنَ لَهُ صاحِبُهُ أنْ يسْتقلَّ بأمْرِ الْوِلايَةِ ، بَعْدَ أنْ أوْهمَهُ أنّ يدَ الْخليفةِ لَنْ تَصِلَ إليْهِ لِبُعْدِه عَنْهُ .

وما زالَ بِهِ يُغْرِيهِ بالانْتِقاضِ والثّوْرَةِ ، ويُزيّنُ لهُ التّمرُّدَ والْغدْرَ ، ويُمهّدُ لهُ الأسْبابَ وَالْوَسائِلَ ، حتى أقنعَهُ .

وَاجتمعَ رأيُاهُما على أنْ يُعلنَ « الْهارجُ » الثّوْرَةَ وَيرْفعَ رايةَ الْعِصيانِ ، مَتى عادا مِنْ زِيارَةِ الْخليفَةِ ، بعْدَ أنْ تنقضِيَ أيّامُ الْعيدِ .

٥ – ثمن المزاح

ولمْ يَتوانَ الْوَزيرُ فى إطْلاعِ الْخليفةِ على نِيّةِ « عِكْرِمَةَ » والإفْضاءِ إليهِ بأخْبارِ ثوْرَتِهِ يوْماً بعْدَ يوْم . وهكذا نجحتِ الْمُؤامرةُ . فلَمْ يكدْ « عِكْرِمَةُ » يَفِدُ على الْخليفةِ – معَ الوافدِينَ من الْوُلاةِ – لِتهْنِئَتِهِ

بالعيدِ ، حتّى فاجأهُ مولاهُ بما اجتمع لديْهِ من الأدلّةِ على خيانتِهِ .

ورأى « عِكْرِمةُ » أنّ أمرهُ وضح ، وسرّهُ افتضح ، وخيانتهُ ظهرتْ ، ونهايتهُ اقتربتْ . فغلبهُ البُكاءُ والندمُ ، واشتدّتْ بهِ الحسرةُ والألمُ ، فهوى على قدمَي الخليفةِ يقبّلُهما متذلّلاً يلتمسُ الصفحَ والغفرانَ ، فلمْ يلقَ منهُ غيرَ التحقيرِ والامتهانِ .

واقترحَ الوزيرُ على الخليفةِ أنْ يأمرَ بصلبِ « الهارجِ » في أوّلِ أيّامِ
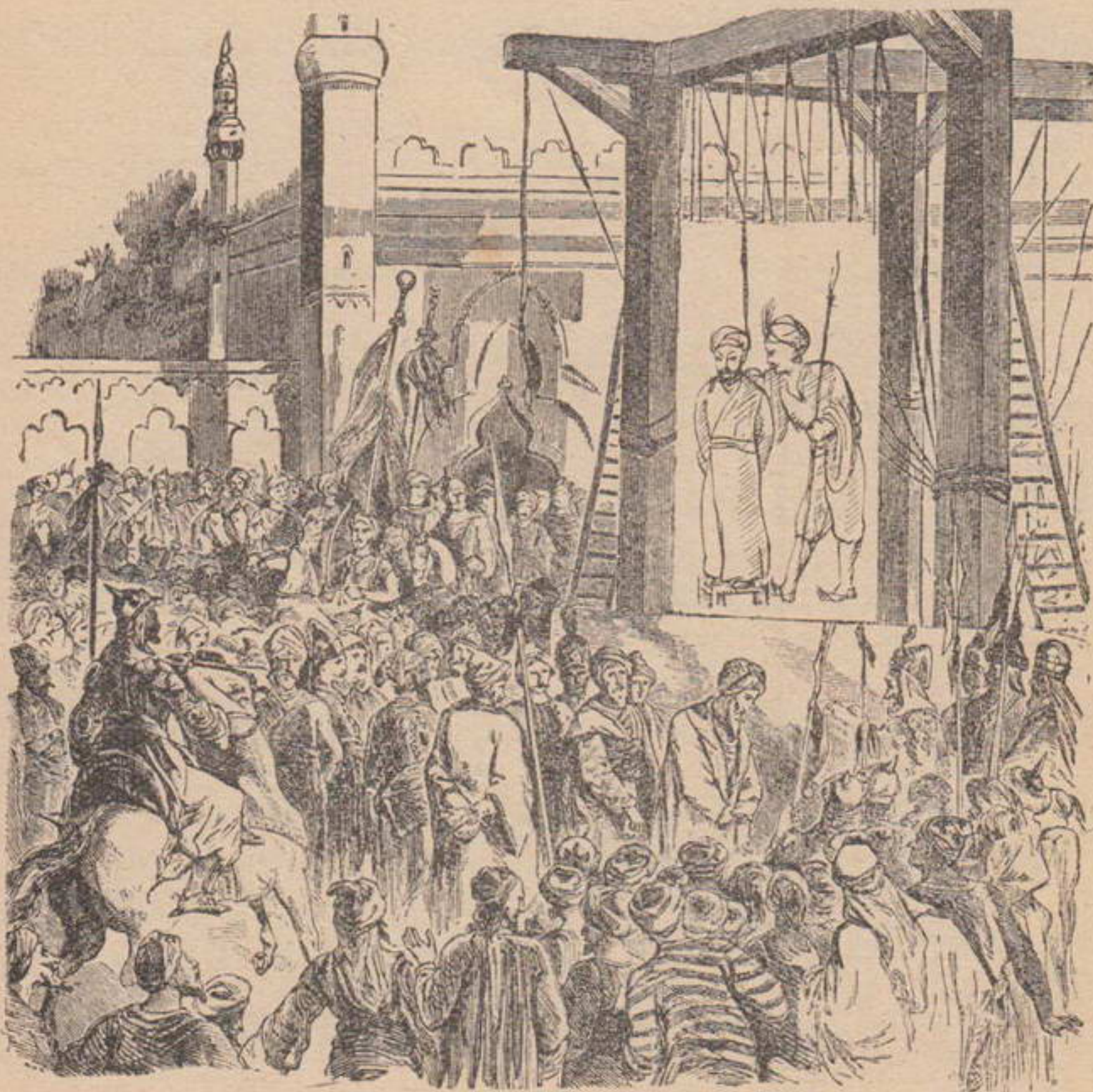
العيدِ -- في باحةِ سوقِ الشطّارِ — لتشهدَ مصرعهُ أسرتُهُ وأهلوهُ ، وصحابتهُ وعارفوهُ .

وما كادَ الوزيرُ يرى غريمهُ واقفاً على الكرسيِّ — والحبلُ في عنقِهِ — حتّى اقتربَ منهُ ، ثمّ همسَ في أذنِهِ ، وهوَ يجذبُ الكرسيَّ شامتاً :

« أيّها المازحُ الغبيُّ ، هكذا يُجذبُ الكرسيُّ ! » .

الفصل الثالث

مُنَبِّهُ الْحَظّ

١ – أمسكوا اللص

قالَ « الْحَسَنُ بنُ سُلَيْمان » : « لقَدْ شَهِدْتُ – أَيُّها الصِّحابُ – مَصْرَعَ « الْهارِجِ » في سُوقِ الشُّطَّارِ ، وَأنا غُلامٌ يافِعٌ ، ولمْ أعْرِفْ تَفصِيلَ هٰذِهِ الْمُؤامرَةِ إلّا اليوْمَ » .

وقال « ثابتٌ الفرّاءُ » : « ما ذَكَرْتُ أمامِي سُوقُ الشُّطّارِ إلّا ذَكَرْتُ أُطْرُوفَةً شَهِدْتُها في طفُولتي فلَمْ أنْسَها إلَى اليَوْمِ . فقدْ رأيْتُ أحَدَ الخُبَثاء الشُّطّارِ يَقْتَرِبُ من عَجُوزٍ حَدْباءَ مُتَوَدِّداً إليْها ، ثُمَّ يَخْطَفُ مِنْها كِيسَ نُقُودِها . وسَمِعْتُ العجُوزَ تَصْرُخُ مُسْتَنْجِدَةً : « أمْسِكُوا اللِّصَّ » . وَرَأَيْتُ النّاسَ يَجْرُونَ في أَثَرِهِ صائِحينَ : « أمْسِكُوا اللِّصَّ » .

* * *

أتَعرِفُونَ كيفَ خرَجَ الماكِرُ الخَبيثُ من هٰذا المَأْزِقِ؟ لَقد صاح مَعَ الصّائِحِينَ : « أمسِكُوا اللِّصَّ » . فتَحيَّرَ النّاسُ فِي أمْرِهِمْ وضَلُّوا ، فلَمْ يَعرِفُوا مَنِ السّارِقُ بينَ هٰؤُلاءِ الصّائِحِينَ » .

٢ – قصة اللحاف

والتفتَ إلَيَّ « زُهَيْرٌ » قائلاً : « بِرَبِّكَ إلّا ما قصصتَ علينا طَرَفاً مِمّا

وقعَ لكَ فى سُوقِ الشُّطّار » .

فقلتُ متعجبًا : « ما أكثر ما يقالُ فى هذا المَقام » .

فقال « أبو رَيْحانة » : « أنا أقصُّ عليكم أعجبَ ما أعرِفُهُ من طرائفِ « أبى الغُصْن » : كُنّا ثلاثة من الوافِدين على سُوقِ الشطّار : « أبُو الغُصن » و « ثابتٌ الفرّاء » وأنا . وقد اكترَينا حُجْرَةً صغيرةً لِنَبيتَ فِيها . واشترَكنا مُتالثةً فى شِراءِ فِراشٍ نَنامُ عليه .

فاشترطَ « أبُو الغُصْن » ألا ينامَ إلّا فى الوسَطِ . فما كانَ أهوَنَهُ مَطلبًا، وأيسرَهُ مُلتَمَسًا . وما كانَ أسرَعَنا إلى قبُولِه مِنْهُ ، وموافقتِه عليه .

ثمَّ انقضى الصَّيفُ وجاء الشِّتاء ، فلَمْ يبقَ لَنا بُدٌّ من شِراء الغِطاء . فأبى صاحِبُنا أنْ يُشارِكَنا فى ثمنِه ، لِأنَّهُ فى غيرِ حاجةٍ إليْه ، فِيما يزْعُم . واضطُرِرْتُ إلى اقتِسامِ ثمَنِ اللِّحافِ مَعَ « الفرّاء » مُناصفةً . وتكشَّفتْ لنا — حينئذٍ — بَراعَةُ « أبى الغُصْنِ » وَبُعْدُ نَظرِه وَسَعَةُ حِيلتِه . فقدْ كانَ « الفرّاء » يَجذِبُ إليْهِ الغِطاء — عنْ غيرِ عمْدٍ — أوْ أجذِبُهُ أنا إلىَّ ، فيتعرَّضُ أحدُنا لِلبرْدِ ، على حِينِ يبقى « أبُو الغُصْن » — فى كِلتا الحالَيْنِ — موْفورَ الحظِّ مِنَ الدِّفْءِ والرّاحَةِ وَالطُّمأنينَةِ » .

* * *

فضحِكَ « الفرّاء » وقالَ لِـ « أبى رَيحانَةَ » : « فهَلْ تذكُرُ آخرَ لَياليِنا فى سُوق الشُّطّار ؟ » فقالَ « أبُو رَيحانةَ » : « كيفَ لا أذكُرُها وقدْ ذاعتْ أخبارُها وسارَتْ بِحَديثِها الرُّكْبانُ ؟ » فقالَ

«زهير»: «لقد اختلفت رواياتها وتعددت، وآن لنا أن نعرفها على حقيقتها». فقلت لهم، وأنا أتمثل حوادثها البعيدة كأنما وقعت ليلة أمس: «لقد كانت ليلة من ليالي الشتاء القارسة، وكنا نعتزم الرحيل في فجر الغد. فلما انتصف الليل استيقظنا على صرخات مزعجة، وجلجلة صاخبة. وسمعنا جماعة يشتجرون ويتصايحون بالقرب من حجرتنا.

وكان صاحباي متعبين لفرط ما كابداه — طول يومهما — من عناء وجهد. فطلبا إلي أن أخرج لأتعرف جلية الخبر. فرجوتهما ألا يشغلا خاطريهما، بما لا يعنيهما. فأبى عليهما الفضول إلا أن أخرج. ولم أر بدًّا من إجابتهما إلى رجائهما، والإذعان لمشيئتهما.

وخرجت بعد أن تدثرت بلحافهما اتقاء غائلة البرد. وما كدت أخرج حتى أحاط بي أولئك الشطار، وحميت المشاجرة بينهم، ثم شكلني أحدهم فوقعت على الأرض. وما كدت أنهض من عثرتي حتى خطف اللحاف الشطار، وأمعنوا في الهرب والفرار. فلما عدت إلى صاحبي سألاني: فيم كان الخلاف؟. فأجبتهما ضاحكا: «على خطف اللحاف».

٣ — الخطيب البارع

فقال «صفوان»: «وما أنس لا أنس كيف ائتمر جماعة من الشطار ليورطوا «أبا الغصن» في الخطابة، ثم يتنادروا عليه ويسخروا به. وكيف تظاهر صاحبنا بالإذعان لمشيئتهم وتلبية اقتراحهم. ثم صعد إلى المنبر قائلا: «أيها الناس أتعرفون ما أقوله لكم؟» فقالوا في صوت

واحِدٌ: «لا». فترَكَ المِنبَرَ مُتظاهِراً بالغضَبِ، وهُوَ يقُولُ: «ما دُمْتُم تَجْهلُونَ ما أقُولُ فلا فائِدَةَ مِنْ نُصْحِ الجُهلاءِ».

ثُمَّ ائتَمَرُوا بِهِ ثانِيَةً، واتَّفقُوا على أنْ يُجيبُوهُ — في هذِهِ المرةِ — بِعكسِ ما أجابُوهُ بِهِ في المرَّةِ السَّابِقَةِ.

فصَعِدَ «أبُو الغُصْنِ» إلى المِنبَرِ، وابتَدَرهُمْ قائِلاً: «أيُّها النَّاسُ، أتعرِفُونَ ما أقُولُ لَكُمْ؟». فأجابُوهُ على الفَوْرِ: «نَعَمْ».

فقالَ لهُمْ وهُوَ يتظاهَرُ بالدَّهْشَةِ والعَجَبِ:

«ما دُمْتُم تعرِفُونَ ما أقُولُ، فما الفائِدَةُ مِنْ تَكْرارِ ما تعرِفُونَ؟»

فلَمَّا كانتِ الثَّالِثَةُ اتَّفقُوا على أنْ ينقَسِمُوا فَرِيقَيْنِ، أحدُهُما يرُدُّ عليهِ بأنَّهُ لا يعرِفُ، والآخرُ بأنَّهُ يعرِفُ. فلَمَّا ألقَى عليهِمُ السُّؤالَ، قالَ جماعَةٌ منهُمْ: «لا»، وقالَ الآخَرُونَ: «نَعَمْ».

فقالَ لهُم ساخِراً: «لا حاجةَ بِكُمْ إلى خطابِي ولْيُخبِرْ عالِمُكُمْ جاهِلَكُمْ بما يعلَمُ».

وهكذا تَمَّ لهُ عليهِمُ الفَوْزُ والغلَبَةُ، في المرَّاتِ الثلاثِ».

٤ — الشقيقان

فقال «منصُورٌ»: «لوْ جمَعَ الرُّواةُ ما رأَوْهُ وما سمِعُوهُ مِنْ عجائِبِ الأخبارِ، وغرائِبِ الأسمارِ، في سُوقِ الشُّطَّارِ، لتألَّفَ منها كِتابٌ ضخْمٌ».

فقال «زُهيْرٌ»: «صدَقْتَ. ولوْ جُمِعَ ما سمِعْناهُ في مجالِسِ

« حَمادٍ الأعْرَجِ » الّتى شهَدْناها فى سُوقِ الشُّطَّارِ ، لَظَفِرْنا بمَجْموعةٍ رائِعةٍ مِنَ الدُّعابَةِ المَرِحَةِ ، وَالحِكْمَةِ الأصيلةِ ، وَالأخيلةِ البارعة » .

فَقالَ « مَنصُورٌ » : « صدَقْتَ . وَما أحْسَبُنى سَمِعْتُ — فى كلِّ ماسَمِعْتُ مِنْ بَدائِعِ الأخْيلَةِ — أبْرَعَ مِن « مُنَبِّه الحَظِّ » : تِلْكَ القِصَّةِ الرّائِعةِ الّتى رَواها لَنا قبلَ وَفاتِه بِأيّام ، وَخَتَمَ بها حَدِيثَهُ المُسْتَفيضَ حِينَ عَرَضْنا لِذِكْرِ الحُظُوظِ ، وأنْحَينا باللائِمةِ عَلَى مَن يُضيعُونَ الفُرَصَ .

٥ — « سَليمٌ » و « حسانٌ »

فَسأَلْنا « مَنْصُوراً » أنْ يَقُصَّها علينْا . فَقال :

« عاشَ فى قديمِ الزَّمانِ أخوانِ شقيقانِ ، اسمُ أحدِهما : « سَليمٌ » وَاسمُ الآخرِ : « حسَّانٌ » . وَقَدْ وَرِثا عنْ أبيهما حَقْلاً كَبيراً ، فاقتسماهُ مُناصفَةً . وَظَلَّ كِلاهما يتعهَّدُ أرْضَهُ طُولَ العامِ ، حتى إذا جاءَ يَوْمُ الحصادِ ظَفِرَ « سَليمٌ » بأحْسَنِ الثَّمَرِ ، وأجدبَتْ أرْضُ « حسّانٍ » فلَمْ تُثمِرْ شيْئاً .

فقال « سَليمٌ » لأخيهِ :

« لقدْ ظَلَمْتُكَ يا أخى عَنْ غيرِ قصْدٍ ، وَاستَوْليتُ عَلَى نِصفِ الأرْضِ الخَصيبِ ، وَتَرَكْتُ لكَ النِّصْفَ الجَديبَ ، فَلْنُعِدِ القِسْمَةَ مِنْ جَديدٍ ، وَليأخُذْ كلٌّ مِنَّا نصيبَ صاحبِه » . فشَكَرَ « حسَّانٌ » لأخيه حنانَهُ وَعطفَه . وَلمَّا حلَّ المَوْسِمُ انعكَستِ الآيةُ ، فأجدَبَ الخَصيبُ ، وَأخْصَبَ الجَديبُ .

٦ – جبل السعادة

ورأى « حسّان » كيف لازمه النّحس فأخرجه صفر اليدين ، في

عامين متعاقبين ، على حين حالف التّوفيق أخاه مرّتين.

فاعتزم « حسّان » أمراً.

وصبر حتّى إذا انتصف اللّيل تسلّل إلى أرض أخيه وجمع طائفة من محصول الأرض ، ثمّ حملها على ظهره . وهمّ بالخروج من أرض أخيه. فاعترضه شيخ مهيب الطّلعة رائع السّمت ، وأمره أن يعود من حيث أتى ، ويعيد إلى أرض أخيه ما سرقه منه.

* * *

فقال له « حسّان » غاضباً : « هذه أرض أخي ، فمن أنت ؟ وما بالك تعترض سبيلي ؟ » فقال له الشّيخ : « أنا حظّ سليم » ، أحرس أرضه وأعنى بثروته وأرعاه ، ولا أمكن أحداً من سرقته ولو كان أخاه ».

فدهش « حسّان » ممّا رأى وسمع ، وسأل حظّ أخيه : « أليس لي حظّ مثلك يرعاني كما ترعى أخي ؟ ».

فقال له الشّيخ : « بلى . ولكنّه نائم – منذ أعوام – في رأس جبل ، يقال له : « جبل السّعادة ». »

فسأله « حسَّان » : « وهل من سبيل إلى إيقاظه من نومه الطويل ؟ »
فقال : « لا يوقظه غيرك . » ثم أرشده حظ أخيه إلى طريق حظه النائم .

٧ — حديث الأسد
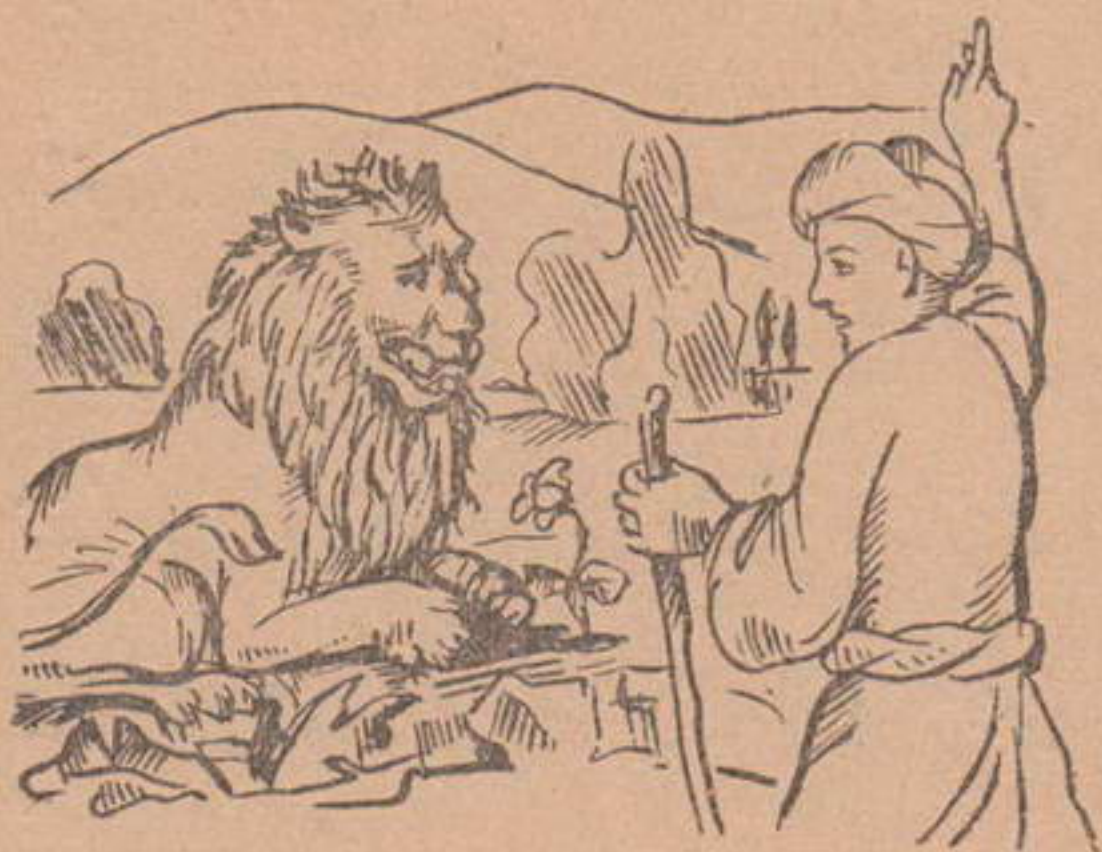
فشكر له « حسَّان » ، ثم سافر في فجر الغد وظل يواصل الليل بالنهار ليبلغ حظه النائم فيوقظه . وإنه لغارق في تفكيره إذ لقي أسداً في طريقه . فحياه الأسد وسأله عن غايته ، فأخبره بقصته . فقال له الأسد : أرجو أن تسأل حظك ، متى أيقظته : ما بال أسد الصحراء مهما يأكل لا يشبع أبداً ؟ .
فوعده « حسَّان » خيراً ، ثم ودعه .

٨ — حديث المتشاجرين

ولقي « حسَّان » — بعد أيام — جماعة يتشاجرون ، فبذل لهم النصح جاهداً حتى أحل بينهم السلام والوئام محل الخلف والخصام . ولما سألوه عن غايته ، أفضى إليهم بقصته ، فشكوا إليه ما يعانونه من شظف العيش . ورجوه أن يسأل حظه — متى أيقظه — لعله يهديهم إلى وسيلة تيسر لهم سبيل الحصول على القوت ، وتكفل لهم الرزق ، لتنقطع بذلك أسباب الخصام بينهم .

فوعدهم « حسان » خيراً ، ثم ودعهم وانصرف .

٩ — بين يدى السلطان

وحل — بعد أيام — ضيفاً على خياط فى مدينة كبيرة ، فأكرم الخياط مثواه ، وسأله عن قصته ، فأخبره بها دون أن يكتم عنه شيئاً . فدهش الخياط مما سمع ، وقال له : « لو قصصت هذه القصة على السلطان لأعجبته » . فلما قصها على السلطان ، طلب إليه أن يسأل حظه — متى تنبه من رقاده — عن السر فى ضعفه وعجزه عن استتباب الأمن ، وإخفاقه فى إصلاح شئون الرعية ، برغم ما يبذله فى ذلك من الجهود .

١٠ — يقظة الحظ

ولما بلغ « حسان » جبل السعادة رأى حظه نائماً فى أعلى الجبل فأيقظه . وسأله فأخبره بجواب مسائله كلها .

ثم وعده أن يشمله برعايته ، ويسهر على راحته ، ويعنى بسعادته .

* * *

فلما مثل « حسان » بين يدى السلطان ، أفضى إليه بما حدثه به حظه ، فقال : « لقد أخبرنى الحظ أن والد مولاى السلطان لم يرزق —

فى شيخوخته — غيرَ طِفلةٍ صغيرةٍ ماتت أُمُّها على أثرِ ولادتِها. فخشىَ السُّلطانُ أنْ يُدركَهُ الأجلُ ولمْ يُنجِبْ غُلاماً يرِثُ العرشَ مِن بعدِه. فكتمَ الأمرَ عنْ رعيَّتِه، وأعلنَ — فى طُولِ البلادِ وعرْضِها — أنَّهُ رُزِقَ غُلاماً يرِثُ المُلْكَ مِنْ بعْدِه. فلمَّا ماتَ السُّلْطانُ جلستِ الفتاةُ على عرشِ والدِها العظيمِ، دُونَ أنْ يعرِفَ سِرَّها أحدٌ. وقدْ أطمعَ الأشرارَ ما رأوْهُ فِيها مِنْ وداعةٍ ولُطفٍ، فاستخفُّوا بِسُلطانِها. ولا سبِيلَ إلى قمعِ الأشرارِ واستِتْبابِ الأمنِ، إلَّا إذا تزوَّجتِ الفتاةُ رجُلاً حازِماً يُعْنَى بِشُئُونِ البلادِ، ويَسْهرُ على رخائِها وأمْنِها».

* * *

فالتفتتْ إليْهِ الفتاةُ مدْهُوشةً ممَّا سمِعَتْهُ وقالتْ لهُ: «الآنَ — وقدْ عرفْتَ ما أكْتُمُهُ مِنْ سِرِّى — لا أرى أحداً أحقَّ مِنْكَ بالزَّواجِ بى وتولِّى عرْشِ هذِهِ البلادِ».

فقالَ «حسَّانٌ»: «لقدْ طالتْ غيْبَتِى عنْ بلَدِى، واشْتقْتُ أنْ أعُودَ إلى وطنى، وما أنا بِحاجةٍ إلى شىْءٍ بعْدَ أنْ حالفَنِي التَّوفِيقُ، وانتبهَ حظِّى مِنْ سُباتِه العمِيقِ».

وألحَّتْ عليْهِ الفتاةُ أنْ يقْبلَ رجاءَها فلمْ تجِدْ مِنْهُ إلا إصْراراً على الرَّفْضِ.

وَلَمَّا وَصَلَ «حَسَّانٌ» إلى المُتَشاجِرِينَ قالَ لَهُمْ: «لَقَدْ أخبرَنِى حظِّى أنَّكُمْ تَتْعَبُونَ وَتَكُدُّونَ، ثُمَّ لا تكادُونَ تظفرُونَ بالقُوتِ، وَعَلى مَقْرَبَةٍ مِنْكُمْ كَنْزٌ مَمْلُوءٌ ذَهَبًا».

ثُمَّ كَشَفَ لَهُمْ «حَسَّانٌ» عَنْ مَكانِ الكَنْزِ. فَقالُوا لَهُ شاكِرِينَ: «أنتَ صاحِبُ الكَنْزِ وعارِفُهُ، وَفاتِحُهُ وَكاشِفُهُ. فَهُوَ مِلْكٌ لَكَ لا يُنازِعُكَ فِيهِ أَحَدٌ. وَقَدْ حالَفَتْنا السَّعادَةُ، مُنْذُ قَدِمْتَ عَلَيْنا، وَحَلَلْتَ بِأَرْضِنا. وَقَدِ اخْتَرْناكَ رَئِيسًا لَنا نَخْدُمُكَ وَنَأْتَمِرُ بِأَمْرِكَ وَنَسْتَرْشِدُ بِهَدْيِكَ».

* * *

فَقالَ «حَسَّانٌ»: «لَقَدْ طالَتْ غَيْبَتِى عَنْ بَلَدِى واشْتَقْتُ العَوْدَةَ إلى وَطَنِى. وَما أنا بِحاجَةٍ إلى شَىْءٍ بَعْدَ أنْ حالَفَنِى التَّوْفِيقُ، وَانْتَبَهَ حَظِّى مِنْ سُباتِهِ العَمِيقِ».

١١ – نومة الحظ

ثُمَّ واصَلَ «حَسَّانٌ» سَيْرَهُ حَتَّى بَلَغَ مَكانَ الأسَدِ، فَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ كُلَّها، ثُمَّ خَتَمَها قائِلًا: «وَقَدْ أخْبَرَنِى حَظِّى أنَّكَ لَنْ تَشْبَعَ إلا إذا أكَلْتَ لَحْمَ غافِلٍ أَحْمَقَ».

فَعجِبَ الْأَسدُ مِمَّا سَمِعَ ، وَقالَ لهُ ساخِراً :

« وَأَيُّ غفلَةٍ أعجَبُ مِنْ غفلَتِكَ ؟ وأيُّ حماقَةٍ أَشدُّ من حماقَتِكَ ؟ إذْ تُتاحُ لكَ فُرْصتانِ نادِرتانِ ، وتَسْنَحُ لكَ سَعادَتانِ مُتعاقبتانِ ،
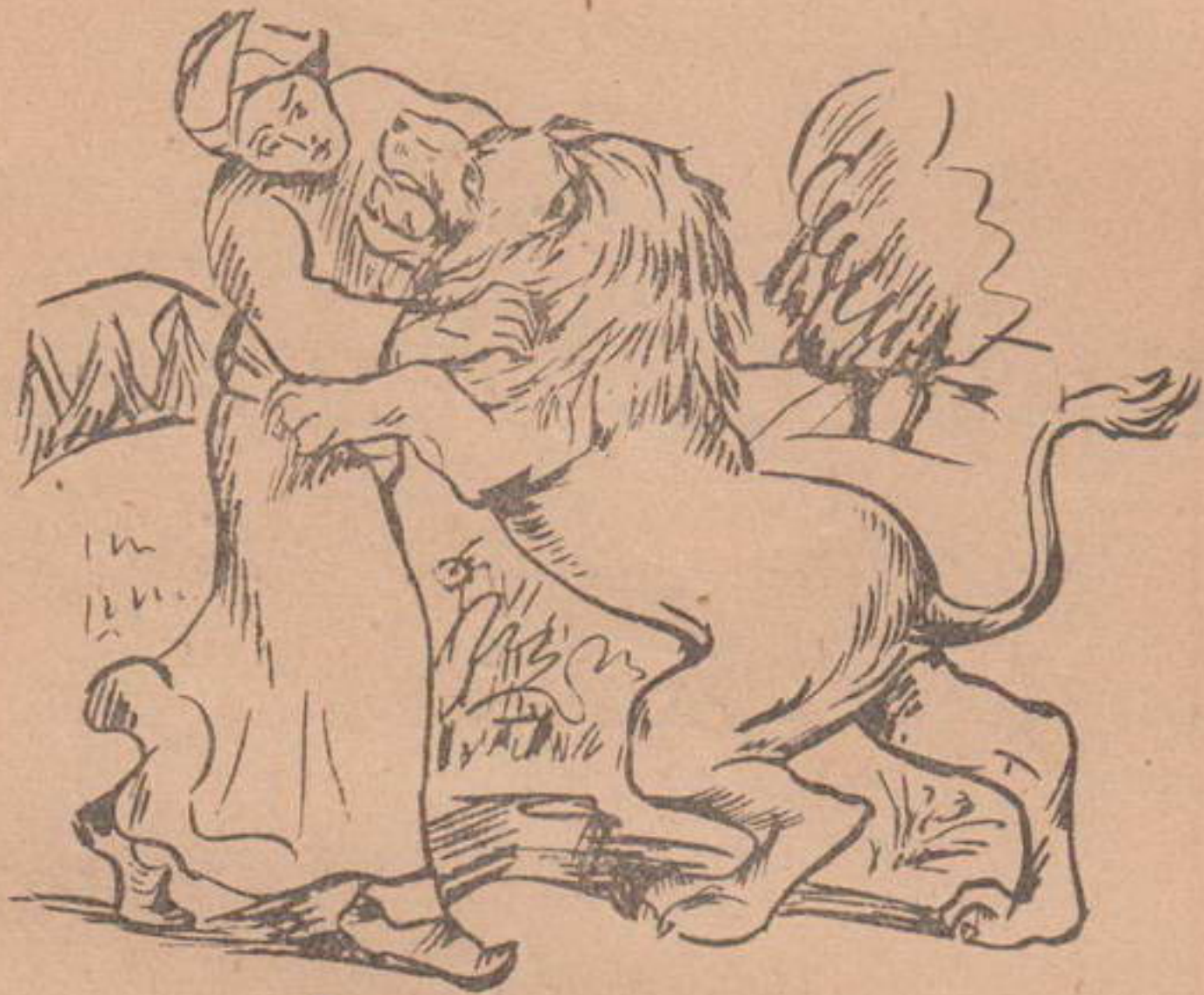
ويُقْبِلُ عليْكَ كَنزٌ وَسُلْطانٌ ، فَتَغفُلُ عَنْهُما ، وَتزْهَدُ فِيهما . فَماذا تُؤَمِّلُ بَعْدَ ذاكَ ؟

أيُّها الغافِلُ الْأحْمَقُ : إنى آ كِلُكَ لا مَحالَةَ ! » .

* * *

وكانَ حظهُ قَدْ يَئِسَ مِنْهُ ، فَنامَ بَعْدَ ما رَآهُ مِنْ غفْلَةِ صاحِبِهِ وكَسَلِهِ وَتهاوُنِه ، وإضاعتِه الفُرَصَ النَّادِرَةَ ، وخَلَّاهُ لِلْأَسَدِ ، فَأَكلَهُ فى الحال .

الفصل الرابع

قِصَصُ الشُّطّار

١ – الزَّعيمان

فقالَ « الحسَنُ بْنُ سُلَيْمانَ » : « لقَدْ أكْثَرْتُمُ الْحَديثَ عَنْ سُوقِ الشُّطَّارِ ، وَأثَرْتُمْ إعجابَنا بما قَصَصْتُمُوهُ علَيْنا مِنْ مُلَحِها وَطُرَفِها .

فَهَلْ فيكُمْ مَنْ يَعرِفُ : مَتى أُنْشِئَتْ هٰذِهِ السُّوقُ ؟ وَلِماذا أُطْلِقَ هٰذا الاِسْمُ علَيْها ؟ »

فقَالَ « زُهَيْرٌ » : « لقَدْ سَمِعْتُ مِنْ « حمَّادِ الْأعْرَجِ » أنَّ هٰذِهِ السُّوقَ أُنْشِئَتْ فى زمَنِ الجاهِلِيَّةِ . وكانَ يَقْصِدُها جَماعَةٌ مِنَ اللُّصُوصِ الشُّطَّارِ ، مِمَّنْ عُرِفُوا بالفَتْكِ فى زمَنِ الجاهِلِيَّـــةِ وَالإسْلامِ ، فَنُسِبَتْ إِلَيْهِمْ ، وَغَلَبَتِ التَّسْمِيَةُ علَيْها ، فلَمْ تُعْرَفْ بِغَيرِها إلى اليَوْمِ .

وكانَ يَرْتادُ هٰذِهِ السُّوقَ – فِيما سَمِعْناهُ مِنَ « الْأعْرَجِ » – جَماعَةٌ مِنْ أُولٰئكَ الشُّطَّارِ ، يَزْعَمُ عَليْهِـمْ لِصَّانِ فاتِكانِ ، هُما : « أبُو حَرْدَبَةَ » وَصاحِبُهُ « شِظاظٌ » .

٢ – حيلَةُ لِصٍّ

وقدْ حدَّثَنا « الْأعْرَجُ » أنَّهُ سَمِعَ الشَّاطِرَ الخبيثَ « أبا حرْدَبَةَ »

يُحدِّثُ بعضَ رفاقِه الشُّطَّار بطَرَفٍ مِمَّا مرَّ بهِ فى حياتِه مِنْ عجائبِ سرقاتِه ، وَغرائبِ فتكاتِه ، فيقولُ :

« رأيتُ فى بعضِ أسفارى رجُلًا على جملٍ ، فأعجبنِى الجملُ . فعزمتُ عَلى أنْ أسرقَهُ وآخذَ مُكافأةً على سرقتِه .

فصبرْتُ حتَّى نامَ الرَّجُلُ . فأخذتُ بزمامِ الجمَلِ ، وعدلْتُ بهِ مِنْ طريقِ القافِلةِ ، ثمَّ أنختُهُ ، وصرعتُ صاحبَهُ ، فأوثقتُ يديْهِ ورجليْهِ . وسرْتُ على الجملِ حتَّى بلغتُ مخبأً أمينًا فأودعتُهُ إياهُ .

ثُمَّ رجعتُ إلى القافِلةِ فوجدتُهُمْ يبحثُونَ عَنْ صاحِبِهِمْ .

فقلْتُ : « ما لكُمْ ؟ » فقالُوا : « صاحِبٌ لنا فقدْناهُ » .

فقلْتُ : « أنا أعلمُ النَّاسِ بأثرِهِ » .

فجعلُوا لِى مُكافأةً إنْ دللتُهُمْ عليْهِ .

فخرجْتُ بِهِمْ أتبعُ الأثرَ حتَّى هديتُهُمْ إليْهِ .

وكانَ صاحِبُهُمْ مِنْ كِبارِ الكاذِبينَ .

فلمَّا سألُوهُ عَنْ قِصَّتِهِ قالَ : « لا أدرِى كيفَ غلبنِى النَّومُ ، فلمْ أكدْ أنتبهُ حتَّى رأيتُ أمامِى خمسينَ فارسًا كامِلِى العَتادِ ، يحيطُونَ بِى ، وَيهجمُونَ علَىَّ . فقاتلتُهُمْ فغلبُونِى » .

فجعلْتُ أضحكُ مِنْ جرْأةِ الرَّجُلِ عَلى الاختراعِ والتَّلفيقِ .

وأعطانِى رفاقُهُ مُكافأتِى ، وَذهبُوا بصاحِبِهِمْ ، فرحِينَ بِالْعثورِ عليْهِ ، وَالاهتداءِ إليْهِ » .

٣ — ناقةٌ وجملٌ

وَقدْ رَوَى لَنا « الأعْرجُ » غرائِبَ أُخرَى مِنْ مُغامراتِ الشّاطرِ « أَبي حرْدَبة » .

وَقدْ سمعهُ « الأَعْرجُ » وَهوَ يرْوِى لِأصْحابهِ القِصّةَ التّاليَةَ فيقُولُ :

« مرَّ بِي — ذاتَ يوْمٍ — رجُلٌ ومعهُ ناقةٌ وَجملٌ ، وَهوَ على النّاقةِ . فقُلْتُ : لآخُذَنَّ الجمَلَ والنّاقةَ جميعاً . فجعلْتُ أَسيرُ على مقرُبةٍ منَ الرَّجُلِ حتّى نام . فأسْرَعْتُ إلى الجملِ فحَلَلْتهُ ، وَذهبْتُ حتّى بلغْتُ بهِ مخْبأً أميناً . ثُمّ انْتبهَ الرَّجُلُ ، فالْتفتَ فلمْ يرَ جملَهُ .

فنزَلَ وَقيَّدَ ناقتَهُ ، وَمضَى يبْحثُ عنْ جملِهِ . فأسْرعْتُ إلى ناقتِهِ فحللْتُ عِقالَها . وتمّ لِي — بِهذِهِ الحِيلةِ — أنْ أظفرَ بالجملِ والنّاقةِ جميعاً » .

٤ — نابِشُ القبرِ

وممّا قصّهُ علينا « الأعرجُ » — ممّا سمِعهُ منْ أخبارِ الشّاطرِ الآخرِ « شِظاظٍ » — القصّةُ التّاليةُ ، وقدْ سمِعهُ « الأعرجُ » يرْوِى لِأصْحابه : أنّهُ عرفَ رجُلًا — منْ أهْلِ « البصْرةِ » — أرادَ أنْ يتزوّجَ بِنْتَ عمّهِ بعْدَ موْتِ أبيها ، طَمعاً فى ثرْوَتِها الطّائلةِ . فأبت الفتاةُ أنْ تتزوّجهُ . وكانَ الرّجلُ وَصِيَّها وَوليَّ أمْرِها . فاغْتاظَ منْها غيْظاً شديداً ، ووقفَ حجرَ عثْرةٍ فى سبِيلِ زواجِها . وكانَ آخِرَ مَنْ خطبها سيِّدٌ منْ سَراةِ العربِ وأشْرافِها . فردّهُ ابنُ عمّها كما ردَّ غيْرهُ منْ قبلُ .

وخرجَ ابْنُ عَمِّها فى هـذه السَّنةِ إلى الحَجِّ ، فماتَ على مَقرَبةٍ من « البَصْرَةِ » ، ودُفِنَ فى تلّ قريبٍ من الجبلِ .

وخلا لبِنت عَمِّه الجَوُّ ، فتزَوَّجت السَّيِّدَ الَّذى كانَ يخْطُبها .

وخرجَ الشَّاطرُ فى أثرِ جماعةٍ مُسافرينَ من « البَصْرة » ، وقدْ عزم على سرِقتِهمْ . فصَبَر عليهِمْ حتَّى - إذاناموُا - فاجأهُمْ ، وانْتهزَ منهمْ غفْلةً . فتكاثرَ القوْمُ عليْه وضربوهُ ضرْباً شديداً ، وجرَّدُوهُ من ثيابهِ . وتَماوَتَ لهُمُ الشَّاطرُ ، فتركوهُ وهُمْ يحْسبُونَهُ قدْ فارقَ الحيَاةَ . وارْتحلَ القوْمُ .

وكانَتْ ليْلةً قرَّةً ، شديدةَ البرْدِ ، فلمْ يدْرِ : كيْفَ يصْنعُ ؟

ورأى الشَّاطرُ قبرَ الرَّجُل على مَقربَةٍ منْهُ ، فأوَى إليْهِ يلتمِسُ الدِّفْء ، بعْدَ أنْ نزعَ لَوْحَ القبْر واحْتفرَ فيه سِرْباً ، فدَخَلَ فيه ثمَّ سَدَّ عليْه باللَّوْحِ .

وكانتْ مُصادفةً عجيبةً أنْ يَمرَّ بهذا القبر زَوْجُ هذِه الفتَاة . فلايكادُ يرَى قبر غريمه حتَّى يُزيِّنَ لهُ الغيظُ والحِقدُ والكراهيةُ أنْ يَنْبشَهُ ، فيلتَفتَ إلى رفيقِه قائِلاً : « واللهِ لأنزلَنَّ قبرَ هذا الرَّجُلِ حتَّى أنظُرَ : هلْ يحْمى الآن بنْتَ عَمِّهِ ويمْنعُها من الزَّواجِ ؟ » .

وسَمِعَ « شِظاظٌ » صوْتَ الرَّجُلِ فعرفهُ . فقلَعَ اللَّوْحَ ، ثمَّ خرج عليْهِ بالسَّيْفِ من القبر ، وصاح به قائِلاً : « نَعمْ واللهِ أحْميها وأمْنعُك منْ زَواجِهـا » . فوَقَع الرَّجلُ على وجْهه مغْشيًّا عَليْهِ لا يَتحرَّكُ مِنَ الفَزعِ ولا يَعقِلُ من الخوْفِ .

واستَوْلَى الشَّاطرُ على ناقتِه وما عليْها منْ مَتاعٍ وثيابٍ ونَقْدٍ .

وقد سمع «الأعرج» «شظاظًا» يقول في ختام القصة: إنه كان يسمع هذا الرجل بعد عودته من «البصرة» وهو يحدث الناس بما حدث له، ويحلف لهم إن الميت الذي منعه من تزويج المرأة خرج من قبره، وعليه كفنه، وفي يده سيفه، وإنه لم ينج منه إلا بأعجوبة.

وكان الناس يتعجبون من حديثه؛ فعاقلهم يكذبه، والأحمق منهم يصدقه، وأنا أعرف القصة فأضحك ساخرًا.

٥ — الشجرة المسحورة

وقد روى لنا «الأعرج» عجيبة أخرى سمعها من «شظاظ» خلاصتها: أنه خرج إلى الصحراء — ذات يوم — يبحث عن شيء يسرقه، وقد اشتد الحر فبحث عن مكان يستظل به، فلم يجد إلا شجرة واحدة ليس في طريقه غيرها. ولم يكد «شظاظ» يقترب منها حتى رأى رجلا يسير على حمار له.

فصبر عليه حتى دنا منه، فقال له «شظاظ»: «أيها الرجل أتسمع؟» قال: «نعم». قال: «إني أحذرك هذه الشجرة التي تريد أن تستظل بها. فإن الحمير وسائر الدواب إذا اقتربت منها غاصت قوائمها في أرضها وانخسفت». فهزئ الرجل بما سمع. وصبر عليه الشاطر، حتى إذا نام سرق حماره وخبأه في مكان بعيد، ثم قطع طرف ذنبه وأذنيه، وغرسهما في الأرض.

وَصبرَ عَلى الرَّجُلِ حتّى استيقظَ مِنْ نَوْمِهِ فرآه يتلفتُ فى كلِّ مكانٍ باحثاً عَنْ حِمارِهِ ، مُقتفياً أثرَهُ . فبينما هُوَ كذلكَ إذْ نظر إلى طرفِ ذنبِه وأُذنيه . فتملّكهُ الفزعُ والندمُ ، وقال وهُوَ يُسْرِعُ فى الهَرَبِ : « لقدْ حذّرنى النّاصحُ الأمينُ فلمْ أستمعْ لتحذيرِه ونُصْحِهِ » . وَظَلَّ يجرى خوفَ أنْ تَخسفَ بهِ الأرضُ كما خُسِفتْ بحمارِه ، حتّى غابَ عن بصرِه ، فاستولى عَلى ما بقِىَ مِنْ متاعِ الرَّجُلِ فحملَهُ على حمارِه .

٦ — « كُميش » الأحمقُ

فعقّبَ « الحسَنُ بْنُ سُليمانَ » عَلى هذهِ القِصّةِ قائلًا :

« مِن بَدائعِ ما سمعتُهُ فى هذا البابِ مِنْ « حمّادٍ الأعرجِ » قِصّةُ « كُميشٍ » الأحمقِ حينَ عهدَ إليهِ أخوهُ « الرَّبيعُ بْنُ كعبٍ » بفرسِه الأصيلِ ليأتىَ بهِ أهلَهُ . وكانَ ذلكَ الفرسُ مضربَ المثلِ فى الأصالةِ والسَّبْقِ ، كما كانَ « كُميشٌ » مضربَ المثلِ فى الغباوةِ والحُمْقِ . فلَقيَه فى طريقِهِ داهيةٌ مِنْ دُهاةِ الشُّطّارِ اسمُهُ « قُرادٌ » . فقالَ لهُ الشّاطرُ : « يا كُميش . هلْ لكَ فى صيدٍ يُغنيكَ وَيَملأُ بيتكَ مالا وذهباً ؟ » فقالَ لهُ « كُميشٌ » : « هذا مَطلبٌ عزيزٌ . فمنْ لى بهِ ، وكيفَ أصِلُ إليه ؟ » . قال الشّاطرُ : « لوْ طاوعتَنى لضَمِنْتُهُ لكَ » . فقال « كُميشٌ » : « لكَ عَلىَّ السَّمعُ والطّاعةُ » . قال الشاطرُ : « هاكَ (خُذْ) ناقتى فاحرُسْها ، وهاتِ فرسَكَ لأصطادَ عليهِ ، وانتظرْنى فى هذا المكانِ إلى هذهِ السّاعةِ مِنْ غدٍ » .

فانخدعَ « كميش » بما سمع . ولم يزلْ يرقبُ صاحبه حتى أمسى من غدِهِ ، أعنى : أنهُ ظلَّ ينتظرُ إلى مساء اليوم التالى . وجاعَ « كميش » . فلما لم يرَ للشاطرِ أثراً انصرفَ إلى أهلِهِ وقالَ فى نفسِهِ : « إنْ سألنى أحدٌ عن الفرَسِ ، قلتُ : تحوَّلَ ناقةً » .

فلمَّا رآهُ أخوهُ قادماً بالناقة وليس معهُ الفرسُ ، عرفَ أنَّ بعضَ الشطَّارِ خدعهُ وتغفلهُ .

فسألهُ أخوهُ : « أينَ الفرسُ يا كُميشُ ؟ » فقالَ : « تحوَّل ناقةً » .

فقالَ أخوهُ : « فأينَ السرجُ ؟ » فاستولتِ الحيرةُ على « كميش » ، وقال : لقدْ نسيتُ السَّرجَ ، فلمْ أُفكرْ فى جوابِ هذا السؤالِ » .

٧ – اللصوصُ الثلاثةُ

وهُنا قال « منصورُ بنُ عليٍّ » : « إنَّ كثيراً من النّاس يُلغُونَ عقولَهُمْ ، ويُحكِّمُونَ سلطانَ أسماعِهِم ، فهُمْ بآذانِهِم يفكِّرونَ ، وبما يُلقَى إليهم من الأكاذيبِ يُسارعُونَ ، ولا يتردَّدُونَ فى تصديقِ ما يَسمعُونَ ، ولعلَّ أعجبَ ما سمعتُهُ – من غفلاتِ أولئك السَّاذجينَ الذين يفكرون بآذانِهِمْ لا بعقولهِمْ – قصةُ « رواحة » . وكانَ يتمتعُ بقسطٍ من السذاجةِ والغباوة . وقدِ اشترى من سُوقِ الشُّطَّارِ خرُوفاً ، فتبعهُ جماعةٌ من الأشرارِ ، ودبَّرُوا خطَّةً ماكرةً لسرقةِ خرُوفه . فاعترضهُ أوَّلُهُمْ فى طريقه ، وبدأهُ بالتحيةِ ، ثمَّ سألهُ : منْ أينَ قدمَ ؟ فأخبرَهُ أنهُ قدمَ من سُوقِ الشُّطَّارِ . فسألهُ

الشَّاطِرُ : « وَماذا اشتَرَيْتَ مِنها ؟ » فقال : « اشتَرَيْتُ هٰذا الْخَرُوفَ » . فنظرَ إلَيْهِ الْخَبِيثُ مُتَظاهِراً بالدَّهشَةِ والعجَبِ، وَسألَهُ : « أَيْنَ الْخَرُوفُ الّذِى اشْتَرَيْتَهُ ؟ » فقال : « ها هُوَ ذا الْخَرُوفُ . أَلا تَراهُ ؟ » فَأطالَ الشّاطِرُ تَحْدِيقَهُ فيهِ ، وضرَبَ كَفًّا بِكَفٍّ وهُوَ يَصِيحُ : « هٰذا كَلْبٌ . فكَيْفَ تُسَمِّيهِ خَرُوفاً ؟ أَتَعْجِزُ أَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ الْخَرُوفِ والكَلْبِ ؟ »

واعترَضَهُ الشّاطِرُ الثّانى — بعْدَ قَليلٍ — فبدأَهُ بالتَّحِيَّةِ ، ثمَّ سألهُ : «من أَيْنَ عَثَرْتَ على هٰذا الكَلْبِ ؟» فتَشكَّكَ « رَواحةُ » ، وقال : « كيف تُسَمِّى الْخَروفَ كلباً ؟ » فقالَ اللّصُّ : « فأيْنَ الخروفُ ؟ » . فأشار « رَواحةُ » إلى الخَرُوفِ . فتظاهرَ الشّاطِرُ بِالدَّهْشَةِ وَالْحَيْرَةِ ، وَقالَ لَهُ : « كَيْفَ تُسَمِّى الْكَلْبَ خَرُوفاً ؟ »

وَلَمْ يَكَدْ « رَواحَةُ » يَبْلُغُ مُنْتَصَفَ الطَّرِيقِ ، حتى سَمِعَ الشَّاطِرَ الثَّالث يُنادِيه : « هَلُمَّ يا صاحِبَ الكَلْبِ ! إلَيَّ يا صاحِبَ الكَلْبِ ! »

فَأيْقَنَ الرّجُلُ أنهُ اشتَرَى كلباً . وتركَ خرُوفَهُ فى الفَلاةِ فاستَوْلَى عليْهِ الشُّطَّارُ .

٨ — العَنز الطائرة

فعقّبَ « زُهَيْرٌ » عَلَى القِصَّةِ قائلاً : « ما أبْرَعَ ما تَنْطَوِى عليْهِ هٰذهِ القِصّةُ مِنْ حَقيقةٍ رائعةٍ ! وما أكْثَرَ ما يأْتَمِرُ جَماعَةٌ مِنْ شِرارِ النّاسِ وخُبَثائِهِمْ ، فَلا يَلْبَثُونَ أنْ يَخْدَعُوا — بِإجْماعِهِم الزّائِفِ — مَنْ يُصْغِى إلى تُرّهاتِهِمْ وأباطيلِهِمْ ، فيُكذّبَ عينيْهِ فيما تَرَيانِ ، وَيُصَدّقَ أُذُنَيْهِ فيما تَسْمَعان . فهُوَ يُبْطِلُ عَقْلَهُ ، ويُطْفِئُ فِطْنَتَهُ ، فيتشَكّكُ فى الحقائِقِ الثابتةِ الواضحَةِ التى لا لَبْسَ فيها ولا إبْهام . » فقالَ « طارِقٌ » : « لقَدْ رأيْتُ — عَلَى العكْسِ مِنْ هٰذا الرّجُلِ — مَنْ يُكابِرُ فى الحقائِقِ المرْئيّةِ ، ويُصِرُّ على خطئِهِ ، بَعْدَ أنْ يَنْكشِفَ لهُ وجْهُ الصّوابِ ، حَتّى لا يُتّهَمَ بأنهُ أخطأَ الرّأىَ .

ومِنْ أمثلةِ هٰذا الفريقِ « صاعِدُ البَصْرِىُّ » . فقدْ لَقيتُهُ — ذاتَ يَوْمٍ — ونحنُ عائدانِ إلى البيت . ولاحَ لنا مِنْ بَعيدٍ شبَحٌ أسْوَدُ على رأسِ الجبَل . فحَسِبْتُهُ غُراباً ، وحسِبَهُ « صاعدٌ » عَنزاً . وأَصَرَّ كِلانا عَلى زعْمِهِ . وحَمِيَتِ المناقشَةُ بَيْننا حَتّى كادَتْ تنقلبُ مُهاتَرَةً . ثمَّ اجتمعَ رأيانا عَلَى أنْ نصْعَدَ إلى ذِرْوَةِ الْجبلِ لِنتثبّتَ مِمّا رأَيْنا . ودَنَوْنا منَ الشّبَحِ ، فإذا بهِ غُرابٌ ، لمْ يكَدْ يَرانا حتّى أسْرعَ فى طيَرانِهِ .

إلى هُنا – أيُّها الصِّحابُ – حَسِبْتُ « صاعداً » قد اقْتنعَ بما رأى، وَعدلَ عَنْ زَعْمِه، بعْدَ أنْ زالَ اللَّبسُ وانْتفى الشَّكُّ. ولكنَّ « صاعداً » – بما رُكِّبَ فى طَبْعِه من المُكابرَةِ – لَمْ يكُنْ يعْنيهِ أنْ يَتعرَّفَ وَجْهَ الصَّوابِ، ويهْتَدِىَ إلى الحق، بِقَدْرِ ما يَعْنيه أنْ يَنْتصِرَ فى مُناقشَتِه، بالحَقِّ – أحْياناً – وبالباطلِ.

فقالَ، فى إصْرارٍ وعِنادٍ: « عَنْزٌ ولَوْ طارَتْ! ».

٩ – جلدُ العَنز

فَقُلْتُ لهُ مُعقِّباً: « لقدْ ذَكَّرَتْنى قصةُ هٰذِه العنزِ الطَّائرَةِ قِصَّةَ عنزٍ أُخْرَى غيْرِ طائرَةٍ. وقدْ وقعتْ لى هٰذِه القصَّةُ – يا ابْنَ أَخِى – مُنْذُ أعْوامٍ فى سُوقِ الشُّطَّار، حَيْثُ لَقيتُ « مَرْوانَ بْنَ سالِمٍ » واقفاً يَبيعُ عَنْزاً لهُ، هِىَ كلُّ ما بَقِىَ لهُ من ثرْوَتِهِ الطائلةِ الَّتى استَوْلَى عَليْها المُخْتالُونَ.

وَرَأَيتُ – عَلَى مَسافةٍ قَريبَةٍ من « مَرْوانَ » – أَحَدَ الشطَّار. فَخَطرَتْ لى فِكْرَةٌ بارِعَةٌ لاسْتِغْفالِ هٰذا الماكِرِ الخَبيثِ.

وسُرْعانَ ما هَمَسْتُ بِها فى أُذُنِ صاحِبِى. فَهَشَّ لِخُطَّتِى وابْتهَجَ. فوَقَفتُ أمامَ العَنْزِ وَقْفةً استَرْعَتِ الأَنْظار.

وأَقْبلَ علَىَّ الشَّاطِرُ الخَبيثُ فِيمَنْ أَقْبلَ مِن النَّاس. وَظَلِلْتُ أُطيلُ النَّظَرَ إلى العَنزِ حِيناً، وَإلَى صاحِبِها حِيناً آخرَ. ثُمَّ أَخْرجتُ مِنْ جَيْبى

مِقياساً، وَرُحتُ أَقيسُ بِهِ العنزَ طُولاً وعرضاً، وَسُفْلاً وَعُلْواً، وَرأساً وَحافِراً، وبطناً وظَهْراً، وَلَمْ أَتْرُكْ مَوْضِعاً إلاّ عُنيتُ بِقياسه وإثباته في دَفْتَري. ثُمَّ أَدخلت يدي في جيبي مُتظاهِراً بالبَحْثِ عَنْ مال أشتري به العنز. ثُمَّ أخرجتُها مُتظاهِراً بالحسرةِ وَالألم لِفقدانِ المالِ. ثُمَّ انصرفتُ دُونَ أَنْ أنبسَ بِكلمةٍ واحِدَة، ومَشَيْتُ وأنا أضربُ كَفّاً بِكَفٍّ، ناظِراً إلى السّماء نَظْرَةَ محزُونٍ عَجَزَ عَنْ شِراءِ طُرْفَةٍ نَفيسَةٍ.

وَانْخَدَعَ الشّاطِرُ الغَبيُّ بِهٰذا التّمثيلِ البارِعِ، فَحَسِبَ أَنَّهُ قَدْ عَثَرَ عَلَى كَنْزٍ ثَمينٍ لا يُقَوَّمُ بِمالٍ. فأَقْبَلَ عَلَى «مَرْوانَ» يَسْأَلُهُ: بِكم يَبيعُ العَنْزَ؟

فَنظَرَ إلَيْهِ «مَرْوانُ» في سُخْرِيَةٍ واحتِقارٍ وصَرَخَ في وجْهِهِ مُتَظاهِراً بِالغَضَب: «ما أنتَ والعنز؟ اذهَبْ لِشَأْنِكَ، فَمِثْلُك لا يَعْرِفُ قيمَةَ هٰذا الكَنْز». فانْخَدَعَ الشّاطِرُ، وأيْقَنَ أَنَّها صَفْقَةٌ رابِحَةٌ، وقالَ لِـ«مَرْوانَ»: «كَيفَ تقُولُ في دنانيرَ خَمْسَةٍ ثَمناً لِهٰذِهِ العَنزِ؟» فَصَرَخَ «مرْوانُ» في وجْهِهِ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إنَّ مِثْلَكَ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يُقدِّرَ هٰذا الكَنْزَ، الّذي تشْتَمِلُ عليْهِ العَنْزُ؟ اذهبْ لِشأْنكَ ولا تُضَيِّعْ وقْتي عَبَثاً.» فاشتَدَّ إقْبالُ الشّاطِرِ عَلَى «مرْوانَ»، وضاعفَ لهُ الثّمنَ، فضاعفَ لهُ التّوْبيخَ. وظلَّ الشّاطِرُ يَغلو في الثّمن، و«مرْوانُ» يَغلو في الرَّفْض حَتّى بلغَ الثَّمنُ مِائَةَ دِينار.

فقالَ لهُ «مرْوانُ» مُتظاهِراً بالألمِ والحسْرَةِ: «بارَكَ اللهُ لكَ فيما

اشتريْتَ ، وهنيئاً لك حظُّك السَّعيدُ الذى أظفرَكَ بما لا يُنالُ ، وأتاح لكَ الحُصُولَ عَلَى كنز نادرِ المِثالِ » .
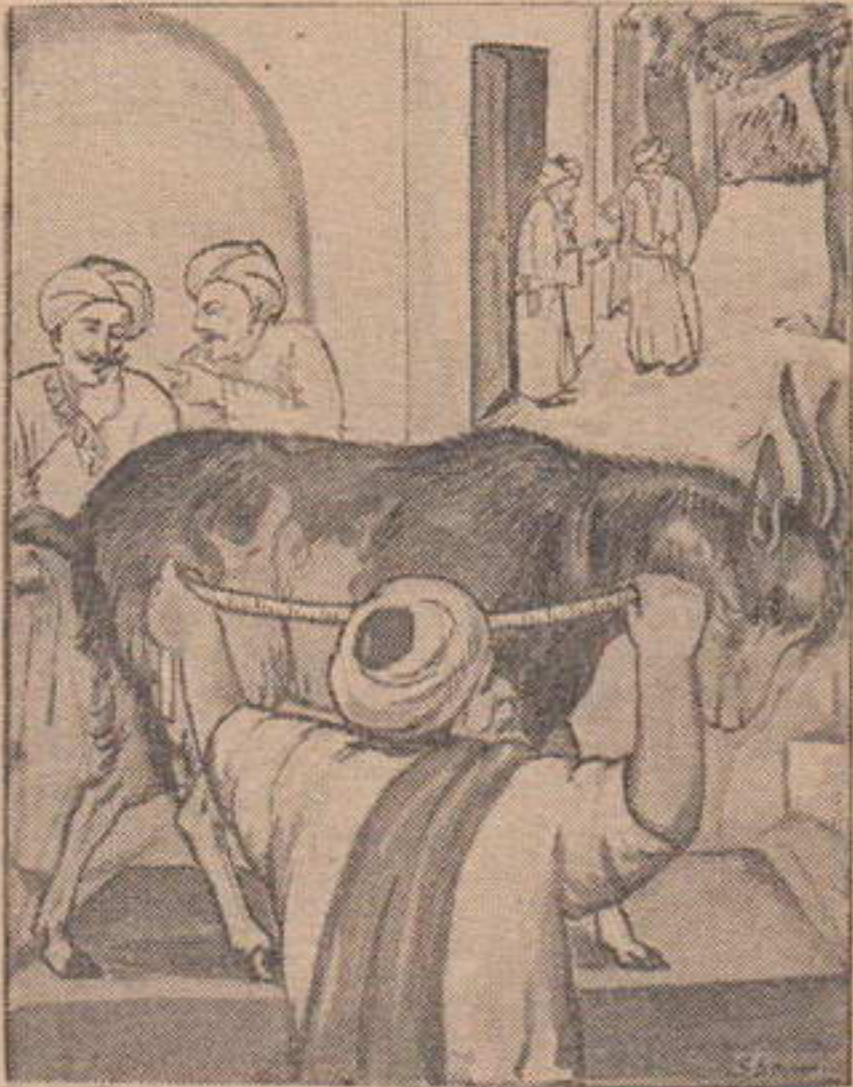
ومَضى على ذلكَ سِتَّةُ أشهُرٍ ، وَالشَّاطِرُ لا يَكُفُّ عَنِ البَحْثِ عَنِّى فى كلِّ مَكانٍ فلا يَهْتَدِى إلَىَّ . ثُمَّ التقَى بى فى طَرِيقِهِ مُصادَفةً ، فاستوْقفَنِى وَحيَّانى ، ثُمَّ سألنى مُذَكِّراً إيَّاىَ بِتلكَ العَنزِ التى كنْتُ مُنهمكًا فى قِياسِها مُنْذُ سِتَّةِ أشْهرٍ .

فقلتُ له : « نعم أذكرُ ذلكَ جيِّداً وَلا أنساهُ » .

فقالَ الشَّاطِرُ : « فماذا دَعاكَ إلى قِياسِها ؟ »

فقلْتُ له متغابياً :

« كُنتُ أظنُّ جِلدَها يَصْلحُ طَبلةً أوْ يصلحُ طاراً ، فإذا بِهِ لا يَصْلحُ طبلةً وَلا طاراً » .

الفصل الخامس

عجائب الطريق

١ – خاتمة الأحاديث

فقال « طارقُ بنُ بهلل » :

« ما أكثرَ ما تداولناهُ من الأحاديثِ في هذا المجلسِ المؤنسِ . ولقد سمعنا العجبَ من أقاصيصِ البُلهِ والساذجينَ ، والحمقى والغافلينَ ، ممن يغطُّ على أبصارهم وعقولهم ما يترامى إلى آذانهم من الكلامِ ، وإنْ كانَ محالًا ، لا يُقرُّه عقلٌ ، ولا يؤيّدهُ منطقٌ .

وقد نرى أحدهم مقتنعًا برأيهِ الحقِّ ، مؤمنًا بفكرتهِ الصحيحةِ ، ثمَّ يسمعُ من بعضِ العابثينَ رأيًا آخرَ لا سبيلَ إلى تصديقهِ ، فإذا بهِ يتشككُ فيما عرفهُ وآمنَ بهِ واعتقدهُ . حتى إذا جاء آخرُ يكرّرُ على سمعهِ ما قالهُ الأوّلُ ، وجدناهُ يُسلمُ عقلهُ ومنطقهُ وفكرهُ ، ويُطلقُ رأيهُ وعقيدتهُ ، ويستسلمُ لما تسمعهُ أذناهُ – من الأباطيلِ – ولو كذّبتها عيناهُ . ولستُ أدرى ما فائدةُ العقلِ إذا لم يستخدمهُ صاحبهُ في وزنِ ما يسمعهُ من كلامِ الناسِ وتدبرهِ . وكيف يرضى عاقلٌ لنفسهِ أنْ يُسلكَ في عدادِ « رواحة » و « كميش » و « صفوان ابن منذر » وأمثالهم من الساذجينَ الذينَ أصبحوا – في عصرنا – لعبةَ العابثينَ ، وسخريةَ الساخرينَ .

فقالَ «منصورٌ» : «أمَّا قِصَّتا «رواحةَ» وَ «كَميش» فقدْ عرَفْناهُما، فَما قِصَّةُ «صفوانَ» ؟» فقالَ «طارقٌ» : كانَ «صفوانُ» منْ أقربِ النَّاسِ إلى «رواحةَ» الذِى أقنعَه الشُّطَّارُ أنَّ خروفَهُ كلبٌ ، وَكِلاهُما مِنَ السُّذَّجِ الغافلينَ ، الذينَ لا يُفَكِّرُونَ إلَّا بآذانِهِمْ ، وَلا يَعْقِلُونَ إلَّا بأسْماعِهِمْ . فهوَ يَقْنَعُ بِما يَسْمَعُهُ — مهما يُخالِفِ المَعْقُولَ — متى سَمِعَهُ أكْثَرَ من مرَّةٍ .

٢ — طاحونة الدقيق

وَقدْ حدَّثَنا «الأعرَجُ» بِطائفةٍ منْ أخبارِهِ وَطرائِفِهِ فِي هٰذا البابِ . وَلَعَلَّ القِصةَ التَّالِيَةَ خيْرُ ما نُخْتَتِمُ بِهِ أحاديثَ لَيْلَتِنا البَديعةِ . فقدْ لقِيَ «صفوانُ» فى بعضِ أسفارِهِ فَتًى تبْدُو عَلَى مُحيَّاهُ الدَّهشةُ ، وَهوَ يَضْرِبُ كَفًّا بكفٍّ وَيُحدِّثُ نفسَهُ مُتعجبًا: «كيفَ كانَ هٰذا؟» فلمْ يتمالَكْ «صفوانُ» أنْ يسْألَهُ : «مِمَّ تتعجَّبُ يافَتَى ؟» فقالَ: «لقدْ رأيتُ

أغربَ ما رأيتُ فى طريقى إلى سوقِ الشُّطَّارِ : رأيْتُ طاحونَةً فوقَ شجرةٍ كبيرةٍ

عالية ، وَرأيْتُ الدَّقيق يَتساقَطُ منها عَلى الأرْض أكْواماً وأكداساً » . فترك الفَتى يَمْضى لشأنه ، وقالَ « صفوانُ » لنفسه : « ما أظُنُّهُ إلّا كاذِباً أو مَجنوناً . وما أكثرَ الكذّابينَ فى هذه الدُّنيا والمجانينَ » .

ثمّ لقيَ - بَعْد قليلٍ - فتًى ثانياً تبدُو على مُحيّاهُ الدّهشة ، وهُو يَضربُ كفّاً بكفٍّ ، ويحدِّثُ نفسهُ مُتعجِّباً : « كيفَ هذا ؟ » فلَمْ يَتمالَكْ أنْ يَسألهُ : « مِمّ تَعْجَبُ يافتى ؟ » فقال : « رَأيتُ فى طريقى إلى سُوق الشُّطّار كلباً أسوَدَ ضخمَ الجُثّةِ يَقفِزُ من شجرةٍ ضخْمةٍ هائلةٍ ، والدّقيقُ يَتساقَطُ من ذيلِه » . فترك الفَتى يمضى لشأنه ، وقال لنفسه : « لاشكّ أنّ الكلبَ قفزَ إلى الأرْض منْ تلك الشّجرةِ . شدّما قسوتُ فى ظُلْمِ ذلك الفتى الصّادقِ الأمين . »

٣ - الطائر العظيم

ولقيَهُ فتًى ثالثٌ فقال لهُ مذهُوشاً : « لقدْ رأيتُ الدُّنيا تُظلِمُ فجأةً . فرَفعتُ بصرى إلى السّماء فإذا طائرٌ كبيرٌ يَبْسُطُ جناحَيْه فيَحْجُبُ ضوْءَ الشمْسِ . ولعلّكَ لا تصدِّقُنى إذا قلتُ لكَ إنّ جناحَيْهِ الكبيرَيْنِ إذا بُسِطا

حَجبا الشَّمسَ عن المدينةِ كلها.» فتركَ الفتى يمضى لِشأنه، وقالَ لنفسه:
«ما أظنه إلا كاذِباً أو مجنوناً. وما أكثرَ الكذابينَ فى هذه الدُّنيا والمجانينَ»

ثمَّ لقىَ - بعد قليلٍ - فتًى رابعاً يضربُ كفاً بكفٍ. فسألهُ: «مِمَّ تتعجَّبُ؟» فقال: «رأيتُ - فى طريقى إلى سُوقِ الشُّطارِ - جَمْهرةً مِنَ النَّاس حَوْلَ بيضةٍ كبيرةٍ جداً يُحاولونَ أنْ يُدحرجُوها فلا يستطيعُونَ». فقالَ لِنفسه: «لا شكَّ فى أنها بيضةُ ذلِكَ الطَّائرِ العظيم. شدَّ ما قسوْتُ فى ظُلْمِ ذلك الفتى الصَّادِقِ الأمين».

٤ - حريقٌ فى الماء

وَلقِيَهُ فتى خامسٌ، فحدَّثهُ أنهُ رأى - فى طريقهِ إلى سُوقِ الشُّطَّارِ - البِركَ والمناقعَ والأنهارَ تحترقُ المياهُ فيها كما يحترقُ القشُّ، والخشبُ الهشُّ». فتركهُ يمضى لِشأنهِ وقال لِنفسه:

«ما أظنُّ الفتى إلَّا كاذِبًا أوْ مجنُونًا وما أكثرَ الكذَّابينَ فى هذِهِ الدُّنيا والمجانينَ».

ثُمَّ لقيَهُ فتى سادسٌ فَقال: «رَأَيتُ فى طريقى، وأنا عائِدٌ مِنْ سُوق الشُّطَّار – فى كلِّ مكانٍ حَلَلْتُ فيهِ – السمكَ والحيتانَ، من جميع الألوانِ والأجْناس والأحْجامِ، مُحرَّقةَ الذيُول تُعانى ما تُعانى مِن الآلام».

فقال «صفوانُ» لِنَفسِه: «لا شك أنَّ السَّمكَ قدْ هربَ من الحريقِ! شدَّ ما قسوْتُ على ذلِكَ الفتى الصادِق الأمين».

٥ – أحواضُ المرقِ

ثُمَّ لقيَهُ سابعٌ، فأخبرهُ أنَّهُ رأى – فى طريقِهِ إلى سُوقِ الشُّطَّار – الحفرَ والأحْواض مَمْلوءةً مرقًا ساخنًا، وثريدًا لذيذًا، وحساءً شهيا».

فتركَ الفتى يَمضى لشأْنِهِ وقالَ لنفْسِهِ: «ما أظنُّ هٰذا الفتى إلا كاذِبًا أوْ مَجنُونًا، وما أكْثرَ الكذابينَ فى هذِهِ الدُّنيا والمجانينَ».

ثمَّ لقِيَ ثامِنًا فأخبرهُ أنهُ كانَ يرى – أيْنما حلَّ وحيثُما ذهب – كوماتٍ من الملاعِقِ مكدَّسةً على طُولِ الطَّريقِ» فقالَ لِنفسِهِ: «لاشك فى أن هٰذِهِ الملاعِقَ أعدَّتْ لشُرْب هٰذا المرقِ اللذيذ، والتهام الثَّريد الشهىِّ! شدَّ ما قسوْتُ على ذلك الْفَتَى إذْ حَسِبْتُهُ – ظُلْمًا – من الكاذبين»؟

القصة التـــالية

الحِمَارُ القَارِئ

مكتبة الكيلانى للأطفال

عن المطبعة العصرية

حكايات للأطفال

	ص
الدجاجة الصغيرة الحمراء	١٥
أم الشعر الذهبي	١٥
بدر البدور	١٥
العلبة المسحورة	١٥

قصص جغرافية

لفنجستون	١٥
لفنجستون وستانلى	١٥

مكتبة الجيب

الجواد الطيار	٥
بساط الريح	٥

عن دار المعارف

أرنب فى القمر	٢

قصص فكاهية

عمارة — الأرنب الذكى	
عفاريت اللصوص — نعمان	
العرندس — أبو الحسن	
(ثمن القصة)	٥
حذاء الطنبورى	٨
بنت الصباغ	١٠

قصص من ألف ليلة

بابا عبد الله والدرويش	٥
أبو صير وأبو قير	٥
على بابا	٥
عبد الله البرى وعبد الله البحرى	٥
الملك عجيب	٥
خُسْرُوْ شاه	٥
السندباد البحرى	١٥
علاء الدين	١٥

	ص
تاجر بغداد	١٥

قصص عربية

حى بن يقظان	١٠
ابن جبير فى مصر والحجاز	١٥

قصص علمية

أصدقاء الربيع	٥
زهرة البرسيم	٧
فى الإسطبل	١٥
جبارة الغابة	٧
أسرة السناجب	٧
أم سِند وأم هند	٧
الصديقتان	٧
أم مازن	١٠
النحلة العاملة	١٠
العنكب الحزين	١٠

قصص هندية

الشيخ الهندى	٤
الوزير السجين	٤
الأميرة القاسية	٤
خاتم الذكرى	٤
شبكة الموت	٤
فى غابة الشياطين	٧

قصص شكسبير

العاصفة	٧
تاجر البندقية	٧
يوليوس قيصر	٧
الملك لير	٧

أساطير العالم

فى بلاد العجائب	٥
الملك ميداس	٥
القصر الهندى	٥

	ص
قصاص الأثر	٥
بطل أثينا	٥
الفيل الأبيض	٥
أشهر القصص	١٥
روبنسن كروزو	
رحلات جلفر	
١ — فى بلاد الأقزام }	٢٥
٢ — فى بلاد العمالقة }	
٣ — الجزيرة الطيارة }	٢٥
٤ — الجياد الناطقة }	

قصص تمثيلية

الملك النجار	٥

عن دار مكتبة الأطفال

جحا قال :

وَزة السلطان	٥
سوق الشطار	٥
الحمار القارئ	٣

عن دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة
ومكتبة الطاهر إخوان بيافا

سارق الحمار	١٠
برميل العسل	١٢

عجائب القصص

شجرة الحياة	٨
غزلان الغابة	١٠
الأميرة وردة	٨
السنجاب الصغير	١٠
السعيد حسن	٣
قالت شهرزاد: قاهر الجبابرة	٣٠

يظهر قريبا

- حكايات جحا : مرآة البومة
- الأستاذ نصر الدين
- قصص جحا : أمير العفاريت
- جحا فى بلاد الجن

مكتبة الكيلانى للشباب

عن دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه

ص

١ — ملوك الطوائف
٢ — نظرات فى تاريخ الإسلام للعلامه دوزى } ٢٠

روائع من قصص الغرب
صياد الخيال وقصص أخرى } ٢٠

عن دار الكتب الأهلية بقرب ميدان الأوبرا

صور جديدة من الأدب العربى ٢٠

عن مكتبة السيد مصطفى الحلبى

ديوان ابن زيدون
(شرح كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة) } ٦٠

عن الجمعية المصرية لهواة الموسيقى

عشر أغان مختارة مع تدوينها الموسيقى ٥٠
(نظم الكيلانى ومشرفة باشا وكيل
جامعة فؤاد الأول)

عن مكتبة الوفد

مصارع الخلفاء (مشاهد رائعة
منقولة عن التاريخ) } ١٠

مختار القصص ١٠

عن مكتبة سعد مصر

فن الكتابة — أو : كيف ندرس فن الإنشاء (نفد) ٥

عن دار المعارف

أساطير ألف يوم (نفد) ١٥

عن المكتبة التجارية

ديوان ابن الرومى
(ثلاثة أجزاء فى سفر واحد) (نفد) } ٦٠

ص

نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى (نفد)
(مجموعة محاضرات ألقاها المؤلف
فى الجامعة المصرية) } ٤٠

مصارع الأعيان (نفد)
(مشاهد رائعة منقولة عن التاريخ) } ١٠

ذكريات الأقطار الشقيقة (نفد) ١٠

مختارات كامل كيلانى (نفد) ١٠

موازين النقد الأدبى (نفد) ٥

المكتبة العلائية

عن دار المعارف

رسالة الغفران : الطبعة الثالثة (نفد)
(أربعة أجزاء فى سفرين) } ١٥٠

رسالة الغفران :
(ترجمة إنجليزية اشترك فى إخراجها
الكيلانى وبراكنبرى) } ٣٠

على هامش الغفران :

١ — دواعى الرسالة
٢ — قصة الحماطة } ٢٠

عن دار الكتب الأهلية

رسالة الهناء :

الجزء الأول : نصوص ودراسات
الجزء الثانى : النص الكامل } ٣٥

(عن لجنة النشر للجامعيين)

حديقة أبى العلاء :
الجزء الأول : مصرع الفنان ١٥

يظهر قريبا : أعلام الثقافة الشرقية — الجزء الأول : تاريخ حياتنا

عن دار مكتبة الأطفال.

الثمن ٥ ص القاهرة - شارع حسن الأكبر ٣٢ تليفون ٥٠٨١٨

كامل كيلانى

جحا قال ... يا أطفال
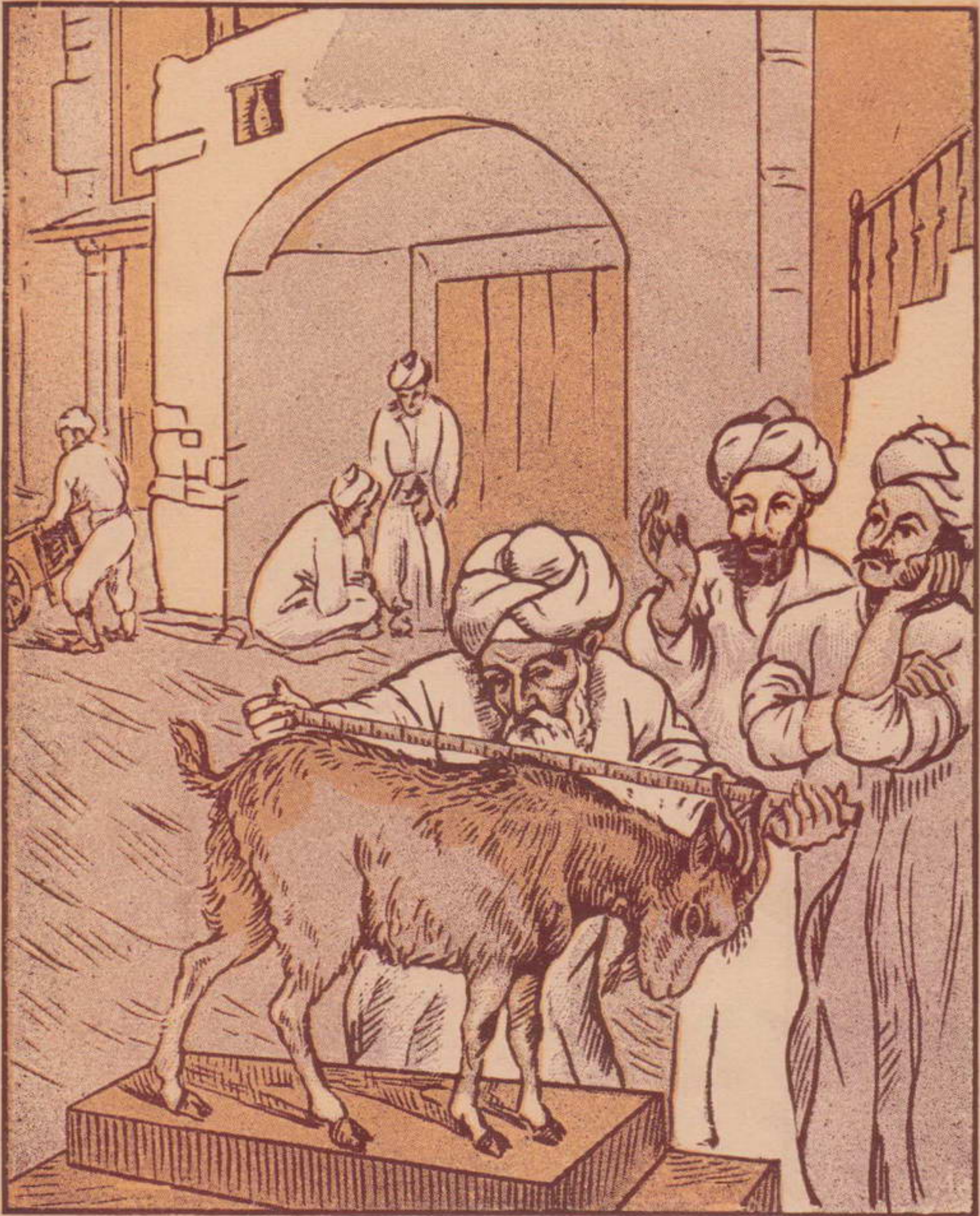
سُوقُ الشُّطَّارِ

عن دار مكتبة الأطفال
القاهرة شارع حسن الأكبر ٣٢ تليفون ٥٠٨١٨

الثمن ٥

كامل كيلاني

مُحاكمة يا أطفال

سُوقُ الشُّطَّار

الطبعة الأولى

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

عن دار مكتبة الأطفال
القاهرة شارع حسن الأكبر ٣٢ تليفون ٥٠٨١٨

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر لصاحبها محمود الخضري

الفصل الأول

البرميلان

١ - الضَّحَّاكُ

طالَما نَهَيْتُ صاحِبي « عَبْدَ الصَّمَدِ » عَنِ المُزاحِ ، وحَذَّرْتُه عواقِبَهُ ، وضَرَبْتُ لَهُ الأَمْثِلَةَ فلَمْ يَرْتَدِعْ . وَطالَما حَذَّرَهُ أَصْحابُهُ أَنْ يَكُفَّ عَنْ مُعابَثَتِهِمْ ، ويُقْلِعَ عَنِ السُّخْرِيَةِ بِهِمْ ، فلَمْ يَزِدْهُ ذلِكَ إلَّا عِناداً وَإِصْراراً ، وَتَمادِياً فى المُزاحِ والعَبَثِ .

وَقَدْ غَلا « عَبْدُ الصَّمَدِ الضَّحَّاكُ » فى ذلِكَ وَأَسْرَفَ ، حَتَّى ضَجِرَ بِهِ جُلَساؤُهُ ، بَعْدَ أَنْ لَحِقَهُمْ أَذاهُ ؛ فَلَمْ يَكَدْ يَسْلَمُ مِنْ لِسانِهِ أَحَدٌ .

وَلَهُ فى هٰذا البابِ فُنُونٌ وَغَرائِبُ لا تَكادُ تَخْطُرُ بِالبالِ .

٢ – على شاطئ البحر

رأيتُ «الضَّحّاكَ» – ذاتَ يومٍ – على شاطئِ البحرِ مع صاحبيه: «سعيدٍ» و«عثمانَ»، وكانا يعاونانه في سوقِ الشُّطّار، وكلاهما – فيما يعلمُ النّاسُ – كذّابانِ أيُّ كذّابانِ. فابتدرني «الضَّحّاكُ» بالتحيّةِ، ثمَّ قال لصاحبيهِ متظرفاً: «طالما سمعتُ النّاسَ يتحدَّثون عن سعةِ هذا البحرِ، ويقولون: إنّ السفنَ لا تبلغُ شاطئهُ الآخرَ قبلَ شهرٍ، وإنَّ العينَ لا تستطيعُ أن تراهُ، أو تبلغَ مداهُ. فهل تصدِّقانِ، أيُّها الصَّديقانِ: أنّي أرى – على الشّاطئِ الآخرِ – سيِّدةً جليلةَ القدرِ، تخيطُ ذيلَ قميصها أمامَ نافذةِ القصرِ؟»

فقالَ الكذّابُ الثّاني: «صدقتَ يا ضحّاكُ، وإنّي لأراها وأسمعُ صوتَها وهي تغنّي مسرورةً فرحانةً».

فقال الثّالثُ: «وإنّي لأرى الإبرةَ تقعُ من يدِها، وأسمعُ صوتَها وهي تسقطُ الآنَ من نافذةِ القصرِ، فتبتلعها أمواجُ البحرِ».

وبعدَ قليلٍ صاحَ «الضَّحّاكُ» ممازحاً: «أتريانِ هذهِ النّملةَ الصّغيرةَ الواقفةَ على شرفةِ قصرِ الأميرةِ؟»

فقالَ «سعيدٌ»: «إنّها تخطبُ جماعةً من النّملِ». وقالَ «عثمانُ»: «إنّي أسمعُ خطابَها وهي تحدِّثُ رفيقاتِها، ولكنّي لا أفهمُ ما تقولُ لأخواتِها!»

والتفتَ إلى « الضحاكُ » ساخِراً وقال: « لعلّكَ - يا أبا الغُصْنِ - ترى النَّمْلةَ كما أراها ! ». وقال « سَعيدٌ »: « ولعلّكَ تَسْمَعُ صَوْتَها كما أسْمَعُهُ ». وقال « عُثمانُ » مُتهكِّماً: « وَلعلّكَ عارفٌ بلُغتِها، ومُفسِّرٌ لنا ما تقولُ لِأخواتِها. ». فقلْتُ وأنا أتظاهرُ بالجِدِّ: « كيفَ لا، وأنا بلُغةِ النملِ عارفٌ خبيرٌ ».

فَسألوني مُتَعجِّبينَ: « وَماذا تقولُ النَّملةُ يا سَيِّدَ العارفينَ ؟ »

فأجَبْتُهم عَلى الفوْرِ: « إنها تقولُ: ألا لَعْنَةُ اللهِ عَلى الكاذبينَ ».

٣ – حُلم الضَّحاك

والتَقَيْنا ذاتَ يوْمٍ في حَفْلٍ حاشِدٍ. وَراحَ « الضَّحاكُ » يَسْخَرُ مِنْ أصْحابه وَيَتنادَرُ عليهِمْ، جارِياً في سَماجَتِهِ، على مألوفِ عادَتِهِ. ثُمَّ الْتفتَ إلَيَّ ساخراً وَقالَ: « لقَدْ رَأيتُ أمسِ - في مَنامي - حُلْماً عَجيباً ».

فأدرَكْتُ - حينَئِذٍ - حيلَةَ « الضَّحّاكِ »، وَعرَفتُ أنَّهُ يُضْمِرُ السُّخريةَ بي، وَيُريدُ أنْ يُضْحِكَ أصْحابَهُ مِنِّي.

فقلتُ له: « ما أظنُّهُ أعْجبَ مِمّا رأيتُ أنا ». فقالَ « الضَّحّاكُ »: « وماذا رَأيْتَ أنت ؟ » فقُلتُ لهُ مُتَخابِثاً: « سأُخبِرُكَ بِذلكَ، بَعْدَ أنْ تقصَّ عليَّ رُؤْياكَ ». فقالَ « الضحاكُ »: « رَأيْتُ في مَنامي أنَّنا نتنزَّهُ في بَعْضِ الْحدائقِ، وَكُنْتَ - في أثْناءِ تجوالِنا - لا تفتَأُ تَنْهاني عَنِ الْمُزاحِ وتُحذِّرُني عَواقِبَهُ. وأنا لا أكُفُّ عَن استِعطافِكَ والاعتِذارِ إليْكَ عَمّا بَدرَ مِنّي من إساءةٍ غيرِ مُتعمَّدةٍ. ولم نكَدْ ننتهي من العِتابِ والاعْتِذارِ حتى رأيْنا جماعةً من الزُّنوجِ يُغنُّونَ ويَعزِفونَ، فاستَمَعْنا إلى غنائِهم طَويلاً.

ثمَّ لقِينا — فى العَوْدة — بعضُ اللُّصُوصِ ، فخشِينا أنْ يُصيبَنا منهم أذًى ، فأسْرعنا بالْهرَبِ. وَبحثنا عن مَخْبإٍ نأوِى إليهِ ، ونستتِرُ فيهِ ، فلم نَجِدْ شيئاً . وَتملَّكتنا الْحيرةُ ، وكاد أمْرُنا يَفْتضحُ . ثم انْفتح أمامَنا بابُ الرَّجاء بعدَاليأس.

فرَأيْنا على مقْرَبةٍ منَّا بِرْميلَيْنِ كبيرَيْن ، فأسْرَعنا إليهِما .

واختبأ كلٌّ واحدٍ مِنّا فى بِرْميلٍ . وصَبَرْنا حَتى انْصرَف اللُّصُوصُ ، فخرجْنا آمِنِينِ .» وهُنا التفت «الضحاكُ» إلىّ مُسْتغرِباً ، أعْنى : مُبالِغاً فى الضحِك ، وقال لى ساخراً : « لقدْ رَأيْتُ أغْربَ ما رَأيْتُ يا « أبا الغصن » : رَأيْتُ الْعسلَ يَسيلُ مِنِّى ، والْقطِرانَ يَسيلُ منك. وأدْرَكتُ أن الْبرْميلَ — الذى اختَبأتَ فيهِ أنْتَ — كان مَلآنَ قطِراناً ، والبِرْميلَ — الَّذى اختبأتُ أنا فيه — كان مَلآنَ عسلا .

ولمْ أكدْ أراكَ غارِقاً فى القطِرانِ ، وَأرانى غارقاً فى الْعسل ، حتى اسْتوْلى علىَّ الضَّحِكُ ، فانْتبهتُ مِن نَوْمى متَعجِّباً مِمّا رَأيتُ » .